دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الجماعة والتغيير : من المناقشة الحرة إلى التعبير عن الذات
المصدر:	الفكر العربي
الناشر:	معهد الإنماء العربي
المؤلف الرئيسي:	مناصفي، زهير
المجلد/العدد:	مج 18, ع 87
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1997
الصفحات:	144 - 153
رقم MD:	371254
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	علم النفس الإجتماعي، إستقلالية الفرد، تنمية القدرات ، السلوك الإجتماعي، الإنتماء
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/371254

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الجماعة والتغيير
من المناقشة الحرة إلى التعبير عن الذات

زهير مناصفي(*)

«لا ممارسة عملية أفضل من النظرية الجيدة»

كورت لوين

كان علم النفس الاجتماعي ولا يزال المموّل الأساسي لدراسة مسائل التأثير الاجتماعي. ومن ضمنها قضية التغيير مثل: تغيير الاتجاهات والآراء، والأحكام، والسلوك، إلخ...، وأيضاً التغييرات التي قد تحصل في الوضعيات نتيجة تحليل الواقع الاجتماعي نفسه...

تعتمد دراسة التغيير على عدة عناصر حيث يتقاطع النفساني مع الاجتماعي. إن الاعتماد على المنحنى النفساني فقط لا يفي الدراسة حقها، ولكن وبحسب اهتماماتي سأحاول فهم التغيير من الوجهة النفسانية معتمداً على تيارين متعارضين ظاهرياً، وهما: تيار علم النفس الاجتماعي ممثلاً بكورت لوين؛ وتيار التحليل النفسي ممثلاً بما عُرف بالمدرسة الفرنسية والتي استلهمت أعمالها من عيادة تافيستوك البريطانية محاولاً استشفاف علاقة تقارب بينهما من خلال تجربتي الخاصة في ميدان دينامية العصبة[1].

بين الفردية والجماعية: البعد الخيالي

تشدد «الرؤية الفردية» على استقلالية الفرد وحريته وترى إلى أن اجتماعه بالآخرين يؤمّن المصلحة الشخصية ومنفعتها. أما «الرؤية المجتمعية» فتجرد الفرد من قدراته الذاتية وتعتبره سجين القوى الجماعية التي تفرض عليه الضغوطات.

(*) أستاذ علم النفس في معهد العلوم الاجتماعية وفي قسم علم النفس ـ كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ الجامعة اللبنانية.

(1) دينامية العصبة وسيلة تداخلية تهتم بحقل القوى الممارس هنا والآن داخل الجماعات المحدودة وفي الوقت نفسه هي محاولة فهم هذه القوى وعلاقاتها المتشعبة. لذلك تتحول دينامية العصبة فورياً إلى تدريب على البحث التداخلي (أي الفهم والتأثير) أو قد تتحول إلى علاج جماعي بحسب الهدف الموضوع منذ البداية.

إذاً هناك، عملياً تجاذب وتنافر بين قطبي الفردية والجماعية، والإنسان يتحدد تاريخياً في علاقته مع الغير من خلال اتجاهين:

أ ـ التقاتل من أجل البقاء.

ب ـ التآلف والتكاتف للتأثير على المجال والبيئة وتغييرهما.

ونشير إلى أن الطبيعة البشرية تمتاز بالبعد الخيالي الذي يتطور انطلاقاً من عدم اكتمال الكائن البشري عند الولادة وبسبب النقص في إشباع الرغبات...

أما دور هذا الخيال فيهدف إلى ردم الهوة بين ما هو موجود وما نود الحصول عليه.

وقد يكتفي الإنسان باللجوء إلى الخيال وأحلام اليقظة ليعيش حياة هوامية غير واقعية، أو قد يدفعه هذا الخيال مشحوناً بطاقة فاعلة، إلى تنمية قدراته وتحويل الحلم إلى «حقيقة»...

فمن خلال الفعل تتحقق الصيرورة نتيجة تجاوز الوضع الآني فيتم التعبير عن الخيال الذي يتحوّل إلى ممكن.

ولتحقيق تلك المخططات والمشاريع ينخرط الإنسان في جماعات متنوعة يُؤمّن له بعضها الحماية والوقاية، وبقيامها بهذا الدور تسهم في إنكفاء أفرادها على ذواتهم وانغلاقهم مما يزيد في تعصب الجماعة فتتحول ملاذاً لكل مُحبَطٍ من الواقع المحيط. أو ينخرط في جماعات تتمتع بقدرات المقاومة والصراع متيحة للفرد تحقيق أفعاله، الحاملة لآماله، فتشرّع أبوابها للخارج وتتفاعل مع الجماعات الأخرى وتصبح مكاناً لتغيير هذا الواقع...

تمثّل الجماعات إذاً المحور الأساسي للاستثمارات الخيالية، والمكان المفضل والمساعد للمرور إلى الفعل أو عدمه، لذلك فإن فاعلية التغييرات الجماعية ترتبط بهذه الاستثمارات.

أعمال كورث لوين

في سنة 1931 حاول لوين دراسة الأنساق الجماعية بكليتها في لحظة معينة وفي وضعية محددة. ولم يهتم بمحددات خصائص الجماعة بل شدد على قوانين بروز هذه المحددات وعلى تطورها انطلاقاً من التفاعلات (Les interactions) الحاصلة بين العناصر (أي الأعضاء) واعتبر أن المهم هو علاقة هذه العناصر بعضها ببعض. وهو ما عُرِف بالاعتماد المتبادل (L'interdépendance). على هذا الأساس حدد الجماعة وليس على أساس التشابه، أو الجوار البسيط بين الأعضاء مضيفاً أنه تتعذر الإحاطة بسلوك جماعة ما إلا من خلال «الحقل» (Le Champs) الناشىء من التفاعل بين عوامل المجال المختلفة (L'environnement). ويؤدي هذا التفاعل إلى نوع من توازن شبه ثابت (Quasi stationnaire) في لحظة معيّنة.

وبكلام آخر، يعتبر لوين الجماعة كعصبة دينامية تتأثر بعناصرها كما أن هذه العناصر تعود فتتأثر بدورها بانتمائها إلى العصبة ككل.

أما عناصر الحقل فتتكوّن من: عوامل فردية داخلية تعود إلى تصورات الشخص وعواطفه وعوامل خارجية قد تكون واقعية أو رمزية: مثل أقنية التواصل، الأهداف والمعايير والقيم وتوزع المراكز والأدوار وطريقة إدارة الجماعة النشاطات التي تقوم بها؛ وهناك أيضاً عوامل مختلفة كالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإيديولوجية والتي تحدد جميعها علاقتها

مع المجال. ويرى لوين في هذه العوامل عناصر جزئية في اعتماد متبادل، وهي التي تؤلف الحقل النفسي للجماعة.

لذلك، فإن التأثير سوف ينبع من الحقل، أي من الداخل. وهو نتيجة تغييرات في بنيان القوى المختلفة والمتناقضة والموجودة في الجماعة. ويستنتج بأنه لم يعد بإمكان تأويل السلوك كنتاج للمثيرات فقط بل كنتاج للتفاعل بين هذه العناصر والمثيرات.

إن المهم في نظر لوين يتمثّل في كيفية إدراك هذه التأثيرات والمعنى الذي قد تتخذه وكيفية مواجهتها. وهنا توصل لوين إلى عكس المفهوم السائد والبسيط والذي يشير إلى أنّ للبيئة أو للمجال تأثيراً مباشراً على الفرد أو على الجماعة. فالبيئة لا تؤثر إلا حين تقوم بتغييرات في الحقل النفسي[2]. هذا ما يؤدي بنا إلى طرح موضوع استراتيجية التغيير ومقاومة التغيير.

التغيير كفصم للتوازن

يعتبر مفهوم التوازن بالنسبة للوين عنصر تفسير هام في ما يتعلق بالسلوك الفردي والسلوك الجماعي وفي ما اختصّ بالتغيير أيضاً.

إذا نظرنا إلى الجماعة في لحظة معيّنة نجدها تظهر كمنظومة من التوازن. إن تبادل عمل الأفراد داخل الجماعة يتم من خلال حقل قوى وتوترات داخلية وقنوات اتصال خاصة وحواجز معيقة ورقابة إلخ... وهذا التبادل خلال عمل الجماعة يؤدي إلى توازن غير مستقر أو دائم التغيير. إذاً هو نتيجة تضافر تحركات القوى، وبالتالي فهو ليس أمراً ثابتاً؛ فحين يختل التوازن يحصل التوتر وتحاول الجماعة إعادة التوازن.

إن توازن الجماعة هو ما نسميه في الحياة الاجتماعية بالوضع الراهن وهو يعود إلى حالة شبه مستقرة ناتجة عن حالة من التوازن بين قوى متعادلة في الكِبَر ومتضادة في الاتجاه. حول مستوى التوازن هذا تظهر تقلبات هامشية بسيطة لا تغيّر من بنية حقل القوى، ولكنها تزيد فقط من التوتر. هذا ما يُعرف بمنطقة مقاومة التغيير وهو يحصل عندما تزداد فاعلية إحدى القوى أكثر من الهامش المسموح به الذي يحدد التوازن غير المستقر ويؤدي إليه. هكذا يفقد التوازن ويبدأ التغيير والذي يترجم آنياً بتوازن جديد وبنوع جديد من الاعتماد المتبادل بين العناصر المتواجدة في الحقل.

فالتغيير في منظومة يفضي إلى البحث عن توازن جديد انطلاقاً من فقدان التوازن القديم، مما يعني أنه قد تم التغلب على مقاومة التغيير.

انطلاقاً من هذا التحليل النظري يتساءل لوين عن كيفية إدخال التغيير إلى الجماعات، أي جعل أعضاء الجماعة تعدّل من اتجاهاتها أو مفاهيمها تجاه موضوع معيّن.

---

(2) تؤلف هذه الفرضية الاساس النظري لتطبيقات متعددة تجدها في المؤسسات الحديثة، في الدعاية السياسية، في الإعلان التجاري، في استطلاعات الرأي العام وفي دراسة الدوافع...

استراتيجية التغيير: المناقشة الحرة

قد يحصل التغيير من خلال زيادة «القوى» التي تدفع في الاتجاه المتوقع أو المرغوب فيه ـ إعلانات السلع الاستهلاكية على سبيل المثال ـ أو زيادة القوى التي تمنع الاقتراب من الاتجاه غير المرغوب فيه ـ المحرمات على سبيل المثال ـ تُعتبر زيادة حدة القوة، سواء كان في الدفع أم المنع، من الضغوطات والتي تتسبّب في ازدياد التوتر وتراكم العدوانية. أما في حال خفض القوى فإن ذلك يخفف من التوترات ويسهل التغيير دونما أي ضغط ظاهري.

ويرى لوين في الامتثالية إحدى المنابع الأساسية لمقاومة التغيير الفردي. فحين نحاول تغيير عادات فرد دون تغيير عادات جماعته نُجابه بمقاومة من قبله خشية أن تسخر منه جماعته أو أن تنبذه. ولتخطي هذه الوضعية أظهرت تجارب عديدة أنه من الأسهل تغيير معايير الناس وعاداتهم وآرائهم حين نتوجه إليهم كجماعة أكثر من التوجه إليهم فرادى.

غير أن في الجماعات ثمة أيضاً امتثالية وهي تزداد كلما ازدادت قوة معيار الجماعة أو ازداد تقييم المعيار الجماعي، وبالتالي تردد الفرد في الابتعاد عنه.

فمن المستحسن البدء في «محاصرة» معيار الجماعة و «تذويبه» ومن ثم جعل الجماعة تصل إلى التغيير المنتظر أو الجديد.

هنا يمكن للفرد أن يتبنّى التغيير الجماعي، ويبقى في النهاية ممتثلاً للجماعة.

ويطرح لوين آلية للوصول إلى تغيير دونما أي ضغط من خلال **المناقشات الجماعية** الحرة التي تسهل هذا التطور. **فحين نترك الجماعة تنغمس في مناقشة حرة حول مسائل مطروحة للتغيير المنتظر، وحين يتم تبادل المعلومات والتعبير عن المخاوف وعرض الاقتراحات، ويتم القضاء على سوء التفاهم والتعبير عن المشاعر المتجاذبة في ما يتعلق بالمسألة المطروحة وبالشخص الذي طرحها،** فإن كل ذلك يُدخل معطيات جديدة في الحقل المعرفي للمشاركين ويغيّر من العلاقة الخيالية التي كوّنوها عن موضوع التغيير الذي يصبح ممكناً. وبما أن القرار الذي يؤخذ بشأنه هو قرار جماعي نجد شعور الالتزام به عند الفرد يزداد.

ويضيف لوين أن المناقشة الحرة ليست بحد ذاتها سبباً للتغيير أو لاتخاذ القرار، ولكنها **تهيّىء فرص المشاركة الفاعلة والنشطة** عند أعضاء الجماعة، وبذلك تجعل كل عضو يعتقد بأن التغيير نابع منه فيتقبّله ويتبنّاه ويدافع عنه.

كما أن المناقشة القائمة على «إرجاع الأثر» (feed back) تثير الدوافع وتحول القول إلى معيوش بينما يقوم «محرك» الجماعة بربط هذه الدوافع بالوجهة المرغوبة[3].

ويفضل لوين ممارسة «الأسلوب الديمقراطي» في إدارة الجماعات لأن هذا الأسلوب يسهّل إشراك موارد الأعضاء المعرفية و «الزمنية» ويدفع بهم إلى حل متواصل للتوترات، فتصل الجماعة إلى القرار من خلال ازدياد شعور الأعضاء بالانتماء إلى العصبة.

---

(3) K. LEWIN: «Les frontières dans la dynamique des groupes», in, **Psychologie dynamique,** chap. VII, P.U.F., 1975, p. 280.

إن دور **المناقشة** هو تهيئة المشاركين لتقبل قرار الجماعة المرتبط بالاختيارات المحتملة، أي نوع من إزاحة المقاومة وخفض التوتر... لذلك يعطي لوين الأهمية لوظيفة «المعلومة» في نسق التغيير. فالإدراكات والأحكام المسبقة والأنماط الجاهزة تتحدد، على وجه الإجمال، انطلاقاً من المعلومات التي يمتلكها الأفراد حول وضعية ما أو حدثٍ ما. أما المناقشة فتساعد على جلب معلومات جديدة لتغيير الإدراكات والاتجاهات. إن وضع المعلومة الجديدة في الاستعمال وتحليلها في الوقت نفسه، يخلق عند الأعضاء وضعية نقد للاتجاهات السابقة ويشجع بالتالي على استبدالها بأخرى.

استهلاك لحوم السلب

جرت أشهر دراسة تطبيقية قام بها أتباع لوين للبرهنة على أهمية المناقشة وتأثيرها على نسق التغيير من خلال خفض القوى عام 1941. وكان هدفها إقناع ربات البيوت بإدخال لحوم السلب (Les abats) في تحضير أصناف الطعام الأميركي. وكان هذا النوع من اللحوم قلما يستهلك في تلك المجتمعات.

اعتمدت الدراسة على مقارنة تأثير المحاضرات والنصائح الفردية على تغيير العادات الغذائية عند مجموعة مستمعة ودور المناقشة الحرة **عند مجموعة** مشاركة في التأثير على قراراتها وبالتالي التغيير عند أفرادها في ما خص هذا الموضوع بالذات.

أخذ لوين وفريقه ست مجموعات مؤلفة من ربات البيوت المتطوعات في الصليب الأحمر. ثلاث جماعات استمعت ولمدة خمس وأربعين دقيقة إلى محاضرات تتكلم عن غنى هذه اللحوم بالأملاح وفوائدها الغذائية ووحداتها الحرارية وطرق التحضير الشهية...؛ في الوقت عينه تناقشت كل مجموعة من المجموعات الثلاث الأخرى في مواضيع تتعلق بهذا الصنف من اللحوم، وشاركت ربات المنازل في طرح الأسئلة على الاختصاصي الذي اكتفى بالإجابة عن الأسئلة ولم يحاضر.

بيّنت النتائج أن 3٪ من المشاركات في المجموعات المستمعة إلى المحاضرات قد أدخلن لحوم «السلب» في بعض أصناف تحضير الطعام، بينما بلغت نسبة اللواتي حضّرن هذه اللحوم 32٪ عند المشاركات في مجموعات المناقشة الحرة.

في تعليقه على هذه التجربة، اعتبر لوين أن الاتجاهات السلبية التي تتعلق بلحوم «السلب» كانت تعود إلى نقص في المعلومات حول هذا الموضوع عند المشاركات، وفي حال إعطائنا المعلومة نؤثر على الإدراك ونعدل من الاتجاه.

ولإيصال المعلومة بشكل فعّال، أي الوصول إلى القرار، علينا بالتواصل وبالمناقشة الحرة الخالية من كل قيد (ديمقراطية) والقائمة على توضيح المعلومة والقضاء على نقاط سوء التفاهم...

هذا الموقف يزيل بالطبع كل بعد عاطفي (نفسي ولاواعٍ) لما قد تحمله المعلومة، وما وصل إليه لوين يبقى تتويجاً لمسار المدرسة السلوكية التقليدية. ولو بدا أن اتجاهه جشطلتياً، إلا أنه في نهاية المطاف لا يهتم إلا بالربط بين المثير والاستجابة مستبعداً ما يشعر به الفرد.

على أنه، وبالرغم من ذلك، فقد توصل إلى نتيجة مدهشة وهي أن الفرد الموجود ضمن

نسق التغيير داخل الجماعة قد يتحول بدوره إلى عامل تغيير بعد أن كان هدفاً له. معنى ذلك أنه يجب الاعتماد على الدينامية العلائقية للجماعة كي يحصل التغيير. (كثيراً ما تعتمد الجماعات العلاجية على هذه التقنية والتي تعتبر أن الفرد ليس ملاحظاً سلبياً لما يحدث في الجماعة، ولكنه يتمتع بدور فاعل إما على المستوى الجماعي أو على المستوى الذاتي ـ فهو متى تبنّى التغيير، يضع مهاراته على المحك كي «يغير» الآخرين. هذا ما جعل لوين يقول بأن كل جماعة تحتضن في ذاتها قدرات على التوازن الذاتي (auto-régulation) وهذا العنصر برأيي هو الذي يؤلف خاصية التغيير في الجماعات العلاجية...).

لقد اكتشف لوين، ودون ظهور ذلك صريحاً في كتاباته، أن قرار الجماعة يكون أقوى حين يزداد شعور انتماء الأعضاء إلى جماعتهم. هذا الانتماء الذي يحصل بفعل المناقشات الحرة (لوين) أو بفعل اكتشاف التشارك في «الانشغالات» حسبما يذهب التحليل النفسي.

موقف التحليل النفسي

يعتمد التغيير من الوجهة التحليلية على الدينامية اللاواعية المتداخلة في الوظيفة الاجتماعية. فالتأكيد على الأنساق اللاواعية يخفف كثيراً من دور العوامل العقلانية ويُظهر السمة الوهمية لبعض الجوانب الإرادية في التغيير... كما أن التحليل يكشف عن تناقضات حاضرة هي التي تحرك على طريقتها الحياة الاجتماعية مشيراً إلى دور الصراعات اللاواعية في ما خص نسق التغيير الاجتماعي...

يرى التحليل النفسي أن علم النفس الاجتماعي قد وقع في خطأ منهجي مهم حين حاول تفسير الظواهر الواعية بظواهر واعية أخرى، بينما يجب تفسير الظواهر الواعية بمحتواها الكامن.

إن التغيير الذي تكلم عنه لوين هو تغيير أفكار وليس تغيير اتجاهات داخلية، فتجاوز مقاومة التغيير وتخطي الخلافات والتوترات وإجلاء الغموض كلها أفعال تتمّ من خلال تفسير الإدراكات المتبادلة للأمور فقط. فتُستبعد النرجسية، وتؤخذ القرارات بشكل «عقلاني». يرى التحليل النفسي أن جميع هذه الإجراءات تعبّر عن وضعية دفاعية ضد القلق وضد الهوام المنتشر في الجماعة.

لذلك فإن التأويل التحليلي هو الذي يشكّل معنى لهذه التعبيرات ويُنهي بالتالي الإشكالية المرتبطة بوضعية ما، فلا لزوم لإثارة العواطف في حال لم يتم تأويل الدينامية الهوامية الكامنة وراءها.

إذا ما عدنا إلى دراسة أتباع لوين عن لحوم السلب نجد أن التفسير غائب في ما خص المضمون النفساني **لأسباب مقاومة التغيير** مما يجعل أنزيو[4] يقول بأنه **لم يتم تفسير التغيير بحد ذاته.**

اشمئزاز وتقزز وقرف ربات البيوت الأميركيات من هذه اللحوم قد زال بحسب لوين حين

(4) D. ANZIEU: «La réalité imaginaire des groupes», in, Le groupe et l'inconscient, Bordas, 1975, pp. 116-119.

اكتشفن من خلال المناقشة الأسباب الاقتصادية والغذائية لهذه القطع من اللحوم...

ويقول أنزيو إن لوين لم يلتفت إلى قضية الاشمئزاز والعائدة إلى مكوّنات هذه الأجزاء وروائحها والتي ترتبط مباشرة بالبول والدم والجنس. فمقالة لوين تلمح بتحفظ وحياء تجاه هذا الموضوع.

ويضيف أنزيو بأن الكُلية تذكّر برائحة البول، ولوز العجل يذكر بما تحتويه الخصيتين، والقلب يرتبط بالدم الضاغط والسائل وتكوينه المطاطي يثير ذكريات لاواعية ترتبط بالثدي وبالرضاعة.

يحول التحليل النفسي هذه الانطباعات الكامنة عند المشاركات إلى تصورات مرئية وملموسة عن أجزاء من الثدي والعضو الجنسي الذكري: أجزاء مقطعة، مُمْسَك بها، مُرتشفة، مُفتَرَسة وحيث تفوح منها الروائح الشرسة، المغرية والممنوعة، للإفرازات البولية والجنسية والتي تهدّد «بحمام دم» كمثابة قصاص لهذه التصورات...

أما العقد النفسية التي طالتها هذه الأجزاء الدنيا من اللحوم، والتي تذكرنا بمناطق اللذة والدنس والغموض، فهي عقد الفطام والخصاء وخطورة الرغبات الدنيا المرتبطة بالأجزاء الغلمية للجسد.

هذا ما عبّرت عنه الجماعات الصغيرة من خلال كلمات مبطنة. أما ما جرى اكتشافه فهو «التشارك» في هذه المسائل واكتشاف التشابه بها وحولها مع الغير. إن التشارك في الأسباب العقلانية ـ الوطنية، الاقتصادية، الحرارية والتحضيرات الشهية ـ لم يدفع إلى استهلاك هذه الأجزاء من اللحوم إلا بعد أن استطاعت المشاركات التعبير عن هوامات وهواجس وانفعالات متشاركة في ما يخص هذه الأجزاء بالرغم من تعدد أسباب الاختلاف التاريخي الشخصي لكل مشاركة.

شعور الانتماء الذي أطلق قرار الشراء والذي هو أقوى من الرأي المسبق والمتعلق بالاشمئزاز لم يتأتَ من المشاركة العقلانية النشطة كما اعتقد لوين، بل لأن المشاركات قد عبّرن صراحة عن انشغالات مهمة، ولأن الأخيرة قد لاقت تجاوباً بين المشاركات، ولأن الموضوع كان يتلاءم وشخصيتهن: (متطوعات في الصليب الأحمر...).

لقد حصل التغيير حين وصلت الجماعة إلى تشارك في الصور الداخلية، أي حين حصل «الصدى الهوامي»[5] بين جميع هذه الصور...

إن التوجه التحليلي النفسي يجب ألا ينفي في نهاية المطاف توجه لوين. فالشعور بالانتماء إلى الجماعة ـ والذي يساهم بشدة في اتخاذ القرار ـ لا يحدث إلا حين تتواكب: «المشاركة النشطة»، أي تبادل المعلومات والمناقشة الحرة مع «التشارك في الهوام»: أي التعبير عن الذات والتقاط الصدى من الآخرين.

فدور التعبير هو في الوصول إلى اكتشاف التشابه مع الغير (مع المحافظة على الاختلاف).

---

(5) يعود الصدى الهوامي إلى خيال فردي فاعل يدخل في «التارجح» مع خيال فرد آخر، وقد يكون ذا مضمون نوعي مختلف إلا أنه يملك تواتراً قريباً من تواتر خيال الأول، فيجعله يتموج بشدة ويحصل الصدى وبالتالي التقارب.

تحليل جلسة دينامية عصبة

هنا أود أن أعرض واقعة جرت مع طلاب مادة دينامية العصبة في الجامعة اللبنانية، التي أتولى تدريسها خلال جلسات تحصل بالتحلق بشكل دائري وإجراء المناقشة بحرية كما يحلو للطلاب دون إيضاح ما هو المطلوب ودون الإجابة عن أسئلتهم التوضيحية.

بدأت جماعة الصف جلساتها بإلحاحها على السلطة (أي الأستاذ) كي تلعب دورها. وبعد أن جوبه هذا الطلب بلامبالاة من الأستاذ ـ المحرك تحولت العصبة إلى طرح عدة مواضيع هروبية كانت تناقشها بتوتر شديد. بدأت الجماعة تشعر بأنها لا تتقدم وبدأ اللوم المبطن يقع على «الدكتور» (مناقشة تقييم الاختصاص في علم النفس على سبيل المثال).

وأطلقت هذه الوضعية مشاعر الذنب وظهر الملل وقُيِّمت الجلسات بأنها سخيفة، متعبة، فوضوية. وأخذت المعاندة في الظهور وأيضاً الغواية: من مشاكسة وقلق وشعور بالإحباط وعرض هستيري لبعض الهوامات والشعور بالخصاء الجماعي (أين المعرفة؟ ضاعت المعرفة). تشرذم، نكوص، ثرثرة جانبية... وقلق خَوِري تجسد بالأمل في أن تكون الجلسات المقبلة أفضل، كما ظهرت هوامات عُظامية (Paranoïaque) من قِبل مجموعة تعتقد بأن الجماعة هي لعبة أهواء «المحرك» وتخدم مصلحته الخاصة.

في هذه الأجواء وخلال الجلسة الرابعة أو الخامسة (لم تسعفني الذاكرة) دخلت إلى قاعة التدريس مجموعة من الطلاب أعربت عن رغبتها في القيام بمعايدة الأستاذ والطلاب لمناسبة ذكرى ولادة الإمام علي بن أبي طالب وقامت بتوزيع السكاكر على الجميع ثم غادرت القاعة...

أخذ الجميع سكاكر، كثيرون التهموها خلال الجلسة، بسرعة وبصمت، ومضغوها بشراهة ومن بينهم المحرك. ولقد عبّر أحد الطلاب في تقريره عن هذه الواقعة بأنه وقتئذٍ وجد السكاكر لذيذة الطعم وطيبة المذاق جداً غير أنه لا يعرف لماذا...

لقد قامت العصبة هنا بأول عمل توحيدي مشترك، فجمعت المشاركة النشطة بالتعبير.

ولكن في هذه الأثناء تدخل أحد الطلاب (ي) وطرح السؤال التالي على الجماعة: «هل من المستحسن أكل السكاكر في الصف؟».

هنا بدا رد الفعل على هذا السؤال قوياً عند عدد كبير من الطلاب، وبدأت الجماعة تعبّر عن «الراحة النفسية» التي شعرت بها من خلال أكلها سكاكر المعايدة والحبور، لأنها قامت بهذا الفعل خلال جلسة صف دينامية العصبة، وكأنها استهلكت الجلسة ذاتها، لأن هذا الفعل أخرجها من جو الملل الذي كان مسيطراً وتعيشه الجماعة. كما ربط البعض بين الذكرى وبين الإحساس الجميل. هذا الرابط الذي يشدهم إلى الذكرى المشار إليها...

فلقد تمّ التعبير عن إعادة التأكيد على الرابط التاريخي بشكل مشترك. وظهر على أنه الأساس للمرور إلى اكتشاف التشابه مع الغير.

لقد دخلت الجماعة في الزمن التاريخي بعدما كانت تدور في حلقة زمنية تكرارية. وبدأت بعد هذه الواقعة تتساءل عن معنى وجودها هنا والآن...

التأويل

في البدء: طرح (ي) نفسه كناطق باسم الأنا الأعلى وكمعنف للانتهاك الذي حصل. كذلك فإن دخول جماعة المعايدين إلى قاعة التدريس خلال التدريس يشكل عملية إنتهاك (Transgression) ويُعاش على أنه تلقيح للجماعة. ولقد عبّر أحد أعضاء العصبة حين قال عن مجموعة المعايدين: «لو دخلوا في غيرمناسبة لكنّا أخرجناهم من الصف، ولكن المناسبة عزيزة، لذلك سكتنا».

ـ إن أكل السكاكر في الصف هو عملية انتهاك كما يعبّر عن قبول وتقبل التلقيح التاريخي الديني، وتركيز جماعي على إعادة اجتياف المعايير الدينية والتوافق حولها مع تقاسم فكرة خصوصية وأزلية الجماعة وقوتها...

ـ إن أكل السكاكر بشكل مشترك يعبّر ـ على مستوى أعمق ـ عن القلق وعن صعوبة ولادة العصبة، كما أن في التهامها بلذة وشراهة تعبيراً مشتركاً عن طلب الأمان والتساؤل عن مَنْ سيمنحها ثدياً جيداً كما منحتها إياه هذه السكاكر وهذه الذكرى.

ـ إن أكل السكاكر بشكل مشترك كان تصويراً رمزياً للاجتياف (introjection) الجماعي للثدي كموضوع جزئي ـ (objet partiel)، وهذا ما يعزز في هذه المرحلة فكرة الأنا المثالي (Le Moi idéal).

يختلف الاجتياف عن الوليمة الطوطمية إذ يُستدخل الأب كموضوع كلي، ويؤدي إلى ولادة الأنا الأعلى ومثال الأنا. وهذا ما كان يبحث عنه الطالب (ي) من خلال طرحه: من المستحسن أكل السكاكر في الصف. وهو كان يتوجه إلى قانون الأستاذ. إلا أن الجماعة لم تكن مهيّأة في هذه المرحلة للتماهي «بمثال للأنا» «L'idéal du Moi» بل كنا في مرحلة ولادة «الأنا المثالي».

والفرق كبير...

إن «الأنا المثالي» هو وريث النرجسية الأولى ويتكون من اجتياف العلاقة الثنائية مع الأم. ولقد حصل في الجماعة استبدال الأنا المثالي الفردي، بأنا مثالي جماعي وهذا ما يُنتج «الوهم الجماعي»[6] (L'illusion groupale) ـ وهو ما حصل في الصف خلال المناقشات الدينية بعد هذه الواقعة ـ فلقد تمّ التشديد على الشعور بقدرة الجماعة المطلقة، بقوانينها وبشرعيتها، بتعسفها وبوهمها بأنها عصبة جيدة راضية عن ذاتها.

ـ إن اللذة المشتركة هي التي وضعت العصبة في «الوهم الجماعي»، أما الشعور بالانتماء الديني فلقد حرك مسألة التوحد والترابط بين الأعضاء.

هذه الوضعية أتاحت للمشاركين الوصول إلى تبادل هوام مشترك قائم على سؤال أول وأخير: «ماذا يريد منا المحرك؟» أي الحاجة إلى الفهم ـ وبما أن الإجابة لم تأتِ وبما أن مواجهة ذلك يعني انتهاكاً، فإن أكل السكاكر هو رمز لهذا الانتهاك. وهنا يتحول البحث عن المعرفة إلى داخل العصبة وليس إلى خارجها. لقد بدأت العصبة حينها تعبّر وتتكلم، وتأتي بالخارج إلى الداخل. ـ وكان ذلك نتيجة لموقف المحرك العاكس للعمليات اللاواعية في العصبة

---

(6) مطبّ الوهم الجماعي وقع فيه ماكس باجيس حين تكلم عن الرابط العاطفي الأصلي في كتابه:
La vie affective des groupes, Dunod, 1970.

فهو آثار العواطف ولم يشرح الدينامية النزوية المنضوية تحتها.

والمؤول لها في الوقت المناسب مما ساعد كثيراً على تخطي هذه المرحلة والخروج من الوهم الجماعي ـ

إن عصبة الصف بعد أن عاشت في الجلسات الأولى قلق الاضطهاد خوفاً من خطر التدمير لتمثّل الجماعة صورة الأم السيئة تخطت هذه المرحلة من خلال اجتيافها لموضوع التدين كموضوع جزئي من خلال أكلها جماعياً للسكاكر.

هذا السلوك نشر بين الأعضاء قدراً كبيراً من الروابط الإيجابية جعل الأعضاء يعيشون تجربة تكوّن العصبة نتيجة الوهم الجماعي الذي سيطر عليها. ولكنها لم تصل إلى «التدريب» لأنه لم يكن بمقدورها الابتعاد عن نرجسيتها ولأن التأويل في هذه الجلسة لم يكن بعدُ قد حان وقته.

إن مرحلة الوهم الجماعي والتي تتميّز بالجبروت النرجسي هي ضرورية جداً لكل جماعة ولتوحد كل جماعة. إنما عليها ألاّ تدوم لكون خطرها كبيراً في إيقاع الجماعة بالتعصب والتعسف والجبروت والرضى الكبير عن الذات...

وكما كان للمحرك دور في إيصال الجماعة إلى الوهم الجماعي فله أيضاً دور في مساعدة الجماعة على تخطي هذه المرحلة، وذلك عبر الابتعاد عن تبادل الهوام (هوام العصبة بأنها جيدة) مع أعضاء العصبة.

هذا الموقف يمكّنه من الإصغاء إلى الهوام وبالتكلم عنه دون الوقوع في مطب «أضداد النقلة»[7] مما يحرر المشاركين من القلق ومن الهوامات المهدِّدة والفوضوية.

لذلك، فليس مطلوباً منه أن يطرح على العصبة أي تنظيمٍ لاواعٍ بدلاً من أي تنظيم آخر.

دوره هو كالمؤتَمن الذي نودع لديه كل ما يُقال.

فالمحرك الحاضر في العصبة والصامت ولربما العاكس لما يُقال والذي قد نفضي إليه بكل شيء، هذا الموقف يساعد المشاركين على التخلص من «أشيائهم» السلبية ووضعها فيه، مما يساعد الجماعة على الانطلاق في نسق التغيير.

---

(7) أضداد النقلة «Contre-trasnfert» وهي مجموعة الاستجابات اللاوعية للمحرك تجاه الجماعة وبخاصة تجاه نقلتها.